المجرم رجل مريض

للأستاذ حسين الظريفي

كان سيزار لمبروزو أول من تناول المجرم بالبحث العلمي وطلع على العالم بنتائج طريفة كان أخطر ما فيها إثبات الملائم الدالة على الإجرام . وقد لبثت نظريته في المجرم والجريمة ردحاً من الزمن وهي ذات سيادة تكاد تكون كاملة في عالم الجنائيات . إلا أنها أخذت بعد حين بكثير من النقد والتجريح ، ثم توسع فيها الناقدون وأضافوا إلى أصلها كثيراً من الحواشي التي لم يقل بها صاحب النظرية ، حتى يكاد يُعد لمبروزو خارجاً على ما ينسب إليه ، أو أنه ليس من المدرسة المعروفة باسمه

وفي الواقع أن لمبروزو لم يصب كبد الحقيقة ، إلا أنه لم يزغ عنها تمام الزيوغ ؛ فالنظرية ليست كلها على خطأ كما أنها ليست كلها على صواب ؛ وأحسن ما يمكن أن يقال فيها إنها صورت نصف الحقيقة ، ولم يُعن جمهور العلماء بنقضها ودحضها إلا لأنها ظهرت في غير ظرفها الملائم وقبل الزمن المهيأ لأخذها بالقبول

وتتضح خطوط هذا التحليل في تفصيل النظرية الحديثة على بواعث الإجرام ، تلك النظرية التي تنطوي على بحث الجريمة من وراء الخلل في الغدد الصماء

وهذه الغدد غير مقناة ، وهي تلقي عصاراتها في الدم مباشرة من دون وسيط فتنتقل على متنه إلى كافة أجهزة الجسم وتفعل فيه الأفاعيل من هدم وبناء وتنويم وإيقاظ على رغم مقاديرها الضئيلة ، وهي في مجموعها تؤلف وحدة حيوية مترابطة الأجزاء تفعل وتتفاعل بمقدار وعلى نمط خاص

وكان من العلماء الذين وقفوا سنوات طويلة من حياتهم على البحث في الغدد الصماء الدكتور (رالف رينولدز) بسان فرنسيسكو وزميله الدكتور (ستانلي) طبيب سجن كنتين . وقد قام هذان الدكتوران بكثير من العمليات لإزالة اضطرابات الغدد وتنظيم سيرها في السجناء من الجناة فكان ما قاما به عظيم الأثر في تحسين أحوالهم الطبيعية والعقلية ؛ وتغيرت طباعهم وأخلاقهم وحتى أشكالهم الظاهرة . وقد وجد الدكتور (رالف) أثناء اختباراته المتواصلة أن نسبة مئوية كبيرة من أبناء السجون مصابة بحالة غير عادية في الغدد الصماء ، وشاهد أن من يرتكبون جناية القتل وما يماثلها من الجروح يكونون مصابين باضطرابات في الغدد الدرقية الموجودة في أسفل العنق ، وأن المزورين والمحتالين واللصوص يختلفون عن غيرهم بغددهم النخامية ، وأن من ينغمسون في الجرائم الشهوانية والنقائص الجنسية وما إليها من المفاسد يوجد عندهم نوع من الاضطرابات في غددهم الجنسية ، وإذا كانت هيئة أعضائهم في الذكورة والأنوثة شبيهة بسواها فلأن منبع الاختلاف مستقر في الداخل

على أن الغدد المضطربة يكثر أن تترك آثار اضطراباتها ظاهرة في أجزاء البدن الظاهرة ، تلك الآثار التي أوحت إلى لمبروزو نظريته فأصاب وأخطأ في آن واحد

والذي يظهر من هذه الكشوف العلمية أن الجريمة ظاهرة مادية لعلة فسيولوجية تقوم في جانحة المجرم ، أو أنها ليست إلا مظهراً لزيادة أو نقص تلك العصارات الغريبة التي تفرزها الغدد الصماء في الدم ؛ فتختلق في الإنسان ما تشاء من عواطف وشذوذ .

وبالقياس إلى هذه النظرية يصبح العقاب غير مجدٍ في معالجة الإجرام وفيه جناية اجتماعية على الجاني . والطريقة الوحيدة لإزالة الجريمة هي معالجة ما يعانيه الجناة من الاضطرابات في غددهم الصماء

قد يقال : إن من الجناة من لا يعود إلى ما جنى إذا نزل به العقاب ، وإن منهم من يقلع عن ارتكاب الجرائم متى تقدمت به السن . وعندي أن الرد على هذا النقد منطوٍ في أن من الجناة من يندفع إلى الجريمة بقوة ظرفه الخاص ؛ فمثل هذا الجاني لا يمكن أن يعد في عداد أولئك الذين تتحرك في نفوسهم عوامل الإجرام من وراء الخلل في الغدد الصماء . كذلك يمكن أن يقال : إن الغدد قد تعود إلى التوازن بعد الإفراط في الإفراز متى ضمرت ببلوغ الشيخوخة

ونحن وإن كنا نرى استحالة تطبيق هذه النظرية في أكثر البلاد وتعسر تطبيقها في البلدان الأخرى ، فإن البحث العلمي

يجب ألا ينقطع بقيام التعذر والاستحالة فى التطبيق ، وأنه لا مناص من اعتباره باعثاً عليه

على أن من الجرائم ما قد يكون منبعثاً عن سوء التربية فى دور الطفولة . فقد ثبت فى دائرة العلوم النفسية والتربيوية أن لسنوات الطفولة من التأثير الخطير فى نفس وأخلاق الطفل ما يبقى رازحاً تحت أعبائه طول حياته

وليس عجيباً أن نحلل بعض مظاهر الإجرام ، فنجدها عائدة إلى ما كان من سوء التربية فى مراحل الطفولة ، فإن الوليد لا بد أن يأخذ عن وسطه المحدود كثيراً مما ندعوه بالعقد النفسية ، تلك التى تتسرب إلى سريرة الطفل كأمراض داخلية تظهر عادة فى أخلاقه وأعماله وفى طريقة تفكيره ، وقد تندفع به إلى نوع خاص من الإجرام ، وذلك أن سلسلة التفكير تصطدم بالعقد النفسية فيقف دون نموه الطبيعى ويضطر إلى اتخاذ طريق آخر معوج فى النمو يوحى به ما ترسب فى قاع النفس من عهد الطفولة . فالعقدة ليست إلا الشرك الذى تقع فيه حياتنا العقلية ، وقد توحى بارتكاب الجريمة ، وهى من وراء قناع من العقل الباطنى تتوارى فيه عن الأبصار

إن هذه العقد النفسية مهما كانت راسية فى قرارة النفس ، ولا تكاد تظهر إلا فى ثوب مستعار تخفى فيه حقيقتها عن الأنظار فإن فى الإمكان أن تصل إليها يد البحث العلمى بطريقة التحليل النفسى ، حيث يهتدى بهذه الطريقة إلى العقد النفسية التى اعترضت حياتنا العقلية ، وعاقتها عن السير فى طريق تكاملها الطبيعى ؛ ثم أخذت تظهر من حين لآخر فى شروب أخلاقنا وأفكارنا وأعمالنا ، وكانت مصدر شذوذ فى كثير من أولئك . وقد ظهر لدى البحث العلمى أن المرض يزول بالوقوف على العقدة التى فرضته . وبهذه الطريقة يمكن إرجاع المصابين فى حياتهم العقلية إلى حالتهم الطبيعية بعد أن تكون قد انحلت العقدة ، وقضى على أصل المرض .

وظاهر مما سبق أن الجريمة قد تكون منبعثة عن تلك الرسائل الكهربائية التى تطلقها العقد الصماء على متون الدماء فتتصل عن طريقها إلى أجهزة البدن كافة . وقد تكون وليدة العقد النفسية التى تصيب الحياة العقلية ؛ وتورث من الأمراض ما قد تظهر آثارها فى صورة ارتكاب بعض الجرائم

فالجرم لم يعد بعد كما كان من قبل مثال الرجولة والبطولة ، والسجن لا يقوم على الرجال ، وإنما يقوم على أشباه الرجال ممن أصيبوا فى غددهم أو فى نفوسهم ، وكانوا أجدر بالمعالجة الطبية أو النفسية من الزج بهم فى أعماق السجون

(بغداد) مصين الظريفى المحامى

وزارة المعارف العمومية

ادارة التوريدات

تقبل العطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة سكرتير عام وزارة المعارف العمومية بشارع الفلكى بمصر لغاية الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ ، عن توريد أدوات الرسم اللازمة للسنة الدراسية ١٩٤١ — ١٩٤٢ . مثل ألوان مائية وفرش الرسم شعر سنجاب وشعر خنزير ومساحات لستك ودوى صينى ومثلثات (خشب وطبخ) ومساطر حرف (T) ولوحات رسم وأقلام باستل وبراجل ومساطر حاسبة . . . الخ .

ويمكن الحصول على شروط وقائمة المناقصة من إدارة التوريدات بشارع درب الجاميز بمصر نظير دفع مائة مليم .

٨٦١٤